المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث
العدد الرابع – المجلد الرابع
ديسمبر 2018 م
ISSN: 2518-5780

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing
AJSRP

المستوى التركيبي للمتناصات الدينية عند الجاحظ في ضوء اللسانياتِ الحديثة (رسالة الحنين إلى الأوطان نموذجاً)

عواد بن بايق الشمري
الكلية الجامعية بتيماء || جامعة تبوك || المملكة العربية السعودية

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن آليات التناص الديني التي استخدمها الجاحظ في كتابه الرسائل، وبالأخص رسالة الحنين إلى الأوطان، فيقف الدارس حول تعريفات متقاربة لسانياً، وهي: المستوى التركيبي، وعلم اللغة النّصي، والمعايير النّصية، والتناص عموماً، والتناص الديني خاصة، إضافةً إلى عرض أبرز أدوار علم اللغة النّصي، والتناص، والتناص الديني، والبحث عن الشواهد اللسانية لتراكيب التناص الديني في رسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ، وشرحها، وتحليلها باتّباع منهج المستوى التركيبي الذي يشمل نحو اللغة، وصرفها معاً في التحليل.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات النّصية، المستوى التركيبي، التناص الديني. المتناص.

تقديم:

ظل النّص وما يتصل به محوراً لكثير من الدراسات النقدية في العصر الحديث، ولاسيّما الألسنية، والأسلوبية منها، فلم يعد النّص في ضوء هذه الدراسات مجرد بنىً لغوية تخضع لأنظمة صوتية، وصرفية ونحوية، ودلالية فحسب، بل نظرتْ هذه الدراسات إلى النّص على أنّه جملة من المضامين الدينية، والثقافية، والاجتماعية، وأنّ الظروف المختلفة التي تحيط بالنّص هي التي صنعتْ هذا النّص، وأخرجته إلى الوجود، فالنّص في ظل التناص، يحمل مضامين متعددة استقاها المبدع من معطيات المعارف المختلفة في عصره، وبيئته، بل في عصور مضتْ، وذلك بفضل النّصوص السابقة التي تمثلتْ هذه المعطيات [1].

ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن آليات التناص التي استخدمها الجاحظ في رسالة الحنين إلى الأوطان، وفقاً لنظرية التراكيب النحوية في اللّسانيات الحديثة، وبيان قدرته على إعادة تشكيل ما استوحاه من النّصوص الغائبة في صورة حية، وجديدة؛ فالبحث في مجمله دراسة نظرية، وتطبيقية للتناص الديني في آنٍ واحدٍ.

وقد اقتضتْ الدراسة أنْ يكون **المنهج المستخدم هو المنهج الوصفي القائم على التحليل، والاستنباط**؛ حيث يبين الباحث مواضع التناص من خلال عرض النّصوص المتعلقة بالتناص الديني، ومن ثم تحليلها بغية فهم جزئياتها، وقيمتها الدلالية.

الجاحظ في سطور:

هو عمرو بن بحر الكناني بالولاء الليثي، لقب بالجاحظ؛ لجحوظ عينيه، وهو من كبار أئمة الأدب في العرب، وأيضاً رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة.

ولد بالبصرة عام 155 هـ في أحد الأقوال، ومات عام 255 هـ بالاتفاق، إثر وقوع مجموعة من كتبه ومؤلفاته عليه؛ فاشتُهِر من وقتها بمن قتلته كتبه.

والجاحظ له مؤلفات كثيرة ومتنوعة، أهمها: الحيوان، والبيان والتبيين، وسحر البيان، والأصنام، والبلدان. اشتُهِر بالفكاهة، والنكتة، وأسلوبه الساخر، حاضر الجواب [2].

وكتاب الرسائل موضوع الدراسة، يُعد واحداً من أهمّ كتب الجاحظ على الإطلاق، والرسائل فيه مصنفة بوجهٍ عام كالتالي: في السياسة، والحرب، وفي العصبية، وتأثير البيئة، وفي الأخلاق، وفي النقد، وفي الحيوان، وفي الوطنيات، وفي الغناء، وفي أنواع الشريعة، والأحكام، وفي الدين[3].

اللسانيات النصية Textual Linguistics:

هو فرع من فروع علم اللغة الحديث، يختص بدراسة النّص، وتحليله تحليلاً شاملاً، للشكل، والمضمون، ومراعاةِ النواحي الاجتماعية، والآثار النفسية للمتلقين، ويطلق عليه مسميات كثيرة، من بينها علم لغة النص، ونحو النص، واللسانيات النصية، فهو على حد تعريف الفقي "ذلك الفرع من فروع علم اللغة الذي يهتم بدراسة النّص من حيث كونه الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة، أهمها الترابط أو التماسك، ووسائله، وأنواعه، والإحالةُ المرجعية Reference، وأنواعها، والسياق النّصي Text context، ودور المشاركين في النّصوص (المُرسِل . المُستقبِل)، وهذه الدراسة تتضمن النّص المنطوق، والمكتوب على حدٍّ سواء "[4].

وقد ظهر هذا العلم في السبعينات من القرن العشرين، ومن أوائل الذين تكلموا فيه ز.س. هاريس في بحثه: " تحليل الخطاب " A Discourse Analysis 1952 م الذي اهتم فيه بتوزيع العناصر اللغوية في النّصوص، كما اهتم بالربط بين النّص، وسياقه الاجتماعي، وامتدتْ الإرهاصات تتوالى تترى إلى أنْ جاء هاليداي Halliday 1973 الذي رسخ مفاهيم علم لغة النّص في اللغويات البريطانية[5].

وتمثل سبب ظهوره في كونه نشأ على أنقاض المدرسة التحويلية التي كانتْ تنظر إلى الجملة فقط، ولا تتعداها إلى غيرها من النواحي الاجتماعية، والثقافية، والعاطفية، وغيرها، مع الاهتمام بالتقنيات الحديثة[6].

هذا وقد حدد بوجراند ودرسلر **Beaugrande and Dressler** معايير النّصانية التي لم تستوفها أطروحات هاريس Harris، والتوليدين لأنّها لم تستطع أنْ تحدد موقفاً محدداً من النّصوص غير النحوية، واختلاف الأساليب داخل النّصوص، ، وهذه المعايير مترابطة ومتماسكة؛ تعمل على اتحاد النص، وترابطه، وتجعله مرتبطا بالبيئة الاجتماعية، ومراعيا مقام المخاطبين، وحالاتهم النفسية.

وأهم هذه المبادئ النّصانية:

1- الاتساق **Cohesion:** الترابط الرصفي القائم على النحو في البنية السطحية، بمعنى التشكيل النحوي للجمل، وما يتعلق بالإحالة، والحذف، والربط وغيره.
2- **الانسجام Coherence:** وهو حبك عالم النّص أي الطريقة التي يتم بها ربط الأفكار داخل النّص ويظهر هنا الربط المنطقي للأفكار التي تعمل على تنظيم الأحداث، والأعمال داخل بنية الخطاب.
3- **القصدية Intentionality:** وهو التعبير عن هدف النّص الذي يغدو وسيلة متاهة لحظة معينة بغية الوصول إلى هدف محدد.
4- **المقامية Situationality:** متعلقة بالسياق الثقافي، والاجتماعي للنّص، أي العوامل التي تجعل النص ذا صلة بموقف حالى أو موقف قابل للاسترجاع.
5- **التناص Intertextuality:** هو أهم عنصر من العناصر المحققة للنّصانية، وهو أنْ تُشكل النّصوص السابقة خبرة للنصوص اللاحقة.
6- **الإخبارية Informativity:** تقتضي الإعلامية، والإخبار حيث يحمل كلّ نص قدراً معلوماً من القدرات الإخبارية.
7- **الاستحسان أو المقبولية Acceptability:** يتحقق من خلال مستوى علاقة النّص بالمتلقي، من خلال إظهار موقف المستقبل للنّص على اعتبار كونه صورة من صور اللغة ينبغي أن يكون مفهوماً ومقبولاً[7].

المستوى التركيبي:

لقد تغيرتْ النظرة اللسانية لعلم النحو في اللغات بصورة عامة، واللغة العربية بصفة خاصة؛ فبعد أنْ كان ينظر إليه على أنّه العلم الذي يهتم بأواخر الكلمات، وعلاقتها فيما بينها، وكذا علاقة الجمل، أصبح يُقصد به كلّ القواعد اللغوية التي تشمل الصرف Morphology مع النحوSyntax؛ من أجل تأدية المعنى، وإيضاحه؛ وصار يطلق عليه Grammar Structure[8].

ورغم تواتر مقولات اللغويين الغربيين عن أسبقية الغرب في ظهور علم التراكيب النحوية، وقولهم: إنّ تشومسكي هو من تكلم في هذا المجال في النظرية اللغوية الثانية المعروفة بالمذهب التحويلي؛ إلّا أنّنا نجد العرب كانوا الأسبق في ظهور هذا العلم الجديد؛ إذ أنّهم عرفوه تعريفات دقيقة واضحة، تفوق تلك التي عرفها إياه لسانيو العصور الحديثة؛ والدليل على ذلك تعريف السكاكي: " اعلمْ أنّ النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلمة؛ لتأدية أصل المعنى مُطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها؛ ليحذر بها في التركيب؛ من حيث تلك اللغة، وأعنى بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض، ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك، وبالكلم نوعيها المفردة، وما في حكمها "[9].

ويعرف المستوى التركيبي بأنه المستوى اللغوي القائم على عدة أسس ومقومات، لا يحق للساني أنْ يفصل بينها عند تحليله النّصوص بهذا المستوى، وتضم تلك الأسس ما يأتي:

قواعد المدرسة التحويلية: وذلك بالنظر إلى المبادئ، والأسس التي تقوم عليها، والتي تشمل:

1- الحذف: deletion a-b = d or b
2- الإحلال: Replacement a = b
3- التوسع: expansion a = b + c
4- الاختصار: reduction a + b = c
5- الزيادة: Addition a = b + d

- قواعد النحو، والصرف الرئيسة في اللغة.
- قواعد علم لغة النّص، أو نحو النّص في تسمية أخرى لهذا العلم.
- الارتباط بين العلوم، والآداب.
- قواعد علم الدلالة Semantic.
- قواعد علم الأسلوب.
- الحدس الذهني[10].

يقول الدكتور المغربي: " وليس بجديد أنْ نقرر أنّ التّناص الذي يحتضن الخطاب الأدبي في نسقيه الظاهر، والمضمر؛ يتم في الشكل، والمضمون، دون فصل تعسفي بينهما ذلك لأنّنا نرى الشاعر يعيد إنتاج ما تقدم، وما عاصره من نصوص مكتوبة، وغير مكتوبة، ولكنّنا نعلم جميعاً أنّه لا مضمون خارج الشكل، بل أنّ الشكل هو المتحكم في المتناص، والموه إليه، وهو هادي المتلقي لتحديد النوع الأدبي، ولإدراك التناص، وفهم العمل الأدبي "[11].

ولارتباط المستوى التركيبي بعلم لغة النّص كما رأينا، يقوم الباحث في السطور القادمة بتطبيق قواعده في تحليل تراكيب التناص الديني، وما سيتبع ذلك من دلالات خاصة.

التناص: Intertextuality

لا يختلف المعنى المعجمي للتناص عن معناه الاصطلاحي؛ ففي لسان العرب: " نص الحديث نصه نصاً رفعه، وكلّ ما أظهر، فقد نص.. ووضع على المنصة أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور.. نص المتاع جعل بعضه على بعض "[12]، وجاء في القاموس المحيط ما يؤكد المعنى نفسه: " نص ناقته: استخرج أقصى ما عندها من السير، والشيء حركه، ومنه: فلان ينص أنفه غضباً، وهو نصاص الأنف... وفلاناً: استقصى مسألته عن الشيء"[13]؛ فالمادة اللُّغوية للتناص تدلُّ على معنى الإظهار، والتعيين، والتحديد، وهو نفس ما يتضمنه مصطلح التناص بدلالته الاصطلاحية التي تعني علاقة النّص بغيره من النّصوص، كما ستفسره السطور القادمة.

ومصطلح التناص هذا ظهر أول ما ظهر في مقالة إليوت الشهيرة " التراث، والعبقرية الفردية Traditional and the individual talent، تناول فيها دور الشاعر القديم في شخصية الشاعر، وشعره. ثم ظهر بعده عند باختين Mikhail Bakhtin في تحليله للرواية، والخطاب الروائي، الذي أكد مسألة " لا يوجد صوت واحد في الرواية "، لكن المصطلح (التناص) لم يأخذ طريقه في الذيوع، والانتشار إلّا عند الناقدة الفرنسية كريستيفا J.Kristiva، وذلك في محاضرة بعنوان " الكلمة الحوار، والرواية "، وذلك عام 1966م؛ وقد عرفته بأنّه " كلّ نص يتشكل من فسيفساء من الاستشهاد، وكلّ نص هو امتصاص، وتحويل لنصوص أخرى "[14]، ورغم تتابع تعريفات التناص بين اللسانيين، والنقاد، وغيرهم، إلّا أنّ تعريف جوليا كريستيفا مازال ذائعاً، ومُنتشراً، فصار التناص أو التناصية Intertextuality معروفاً بأنّه حضور مشترك بين نصين أو أكثر.

ويرتبط بمصطلح التناص بعدة مصطلحات أخرى، وهي:

- **الملحق النّصي أو النص الموازي Paratext:** ويقصد به النّصوص المحيطة بالعمل، وهي نصوص تكميلية، أو كمالية للنص، وأهمها: العنوان، والملاحق، والتمهيد، والمقدمة، والهوامش، والخاتمة.
- **الماورائية أو الماوراء النّص Metatextuality :** ويقصد به شرح النّص بنص آخر دون أنْ نسميه بأي اسم كان.
- **النص الجامع Architextuality:** ويقصد به الإشارة إلى جنس النّص أو نوعه.
- **المتعاليات النصية Hypertextuality:** ويقصد به كلّ نص مستمد من نص سابق[15].

والواضح مما سبق أنّ التّناص يمثل نقطة الرجوع إلى الوراء في دراسة الأعمال اللغوية؛ ويؤكد ذلك الكساسبة بقوله: " ومما لا شك فيه أنّ التناص يقتضي الرجوع إلى الوراء، ثم الأخذ بما يتناسب، والنّصوص الجديدة "[16]، ولا جدال في أنّ مسألة العودة إلى التراث الماضي يتطلب أموراً كثيرةً، يمكننا حصرها فيما يأتي:

1- الحفظ، والفهم.
2- الاطلاع على النّصوص الأدبية السابقة(17).

لكن لا نأخذ الضابطين السابقين على سبيل المسلمة المنسلخة عن أطر المجتمع، وثقافاته، وأعرافه؛ لأنّ التّناص رغم كونه رجوعاً إلى الوراء، إلّا أنّه رجوع لغرض صياغة النّصوص الواقعية المعاصرة، وتحليلها، ووصفها؛ فالتناص يستمد وجوده من التقاليد، واللغة، والكينونة، والتاريخ، والثقافة، ومن المستحيل انصراف المصطلح عن هذه الأطر.

أنواع التناص:

إذا نظرنا لأشكال التناص وأنواعه نجد أنّ النظرة اللسانية إليها لم تحدد أنواعاً ثابتة، أو قوالب مُتفَقاً عليها؛ وهذا يرجع من وجهة نظر الباحث إلى سببين:

الأول: اختلاف ثقافات الدارسين، ومشاربهم، ومدارسهم التي تخرجوا في أفكارها.

والسبب الآخر: أنّ التناص يتطلب نصاً بِعينِه، يقوم على جنباته.

والنّص موضوع الدراسة وَفقاً للنظرة اللسانية الحديثة مفتوح الجوانب، غير محدد إياها؛ ومن هنا تعددتْ أنواع التناص، وأشكاله على المستويين السابقين: المُحلِل، والنّص ذاته؛ فرأينا من قسم التناص إلى تناص تداولي، وتناص تاريخي، وتناص ديني، وتناص أدبي، ورأينا أيضاً من قسمه إلى تناص مقصود، وتناص غير مقصود....إلخ.

ويتفق الباحث مع رؤية الدكتور أحمد الزغبي في تقسيمه التناص إلى تناص مباشر، وتناص غير مباشر؛ حيث يرى هذا التقسيم شَاملاً إلى حدٍ كبيرٍ أنواع التناص المختلفة، مع تقريبه للمذاهب المختلفة في تقسيم التناص؛ فالتناص المباشر يشمل عنده التناص التاريخي، والديني، والأدبي، وتناص الأدب الشعبي، أما التناص غير المباشر فيشمل تناص الأفكار، والمعاني، وتناص اللغة، والأسلوب[18].

التناص الديني:

ويقصد به تداخل نصوص دينية مختارة عن طريق الاقتباس أو التضمين من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو الخطب، أو الأخبار الدينية مع النّص الأصلي للرواية؛ بحيث تنسجم هذه النّصوص مع السياق الروائي، وتؤدي غَرَضَاً فكْرِيَاً، أو فنياً، أو كلهما مَعَاً[19].

ويقودنا هذا التعريف إلى عدة نقاط، وهي:

- المتناص هنا هو الرواية، وليس القرآن ذاته؛ ويقصد بهذا أن القرآن ليس مأخوذا من نص آخر غيره، فهو كلام الله تعالى المعجز، بل النصوص الأخرى تأخذ منه؛ فالقرآن قصص، كما في قوله تعالى: " إن هذا لهو القصص الحق"، وقوله تعالى: " نحن نقص عليك أحسن القصص"؛ فالنص المقدس قابل للشرح والتحليل ومعرفة مراميه ودلالاته، وما يتوافر للنص المقدس لا يتوافر للنص العادي، فمفهوم النص القرآن يمكن أن يتحول لغيره وليس العكس.
- المجال الديني واسع التناصات التراثية، أو حتى غير التراثية، التي تحدث بشكل معاصر.
- للتناص الديني أدوار مهمة، وكبيرة جداً، تؤثر في العمل اللساني، وتكمله، وتسانده، لأنْ يرقى إلى منزلة عليا، ولهذا يستطرق كاتب هذه السطور في عرض أدوار التناص الديني، ومهماته المختلفة، وذلك في السطور القليلة القادمة.

أهداف التناص الديني:

يعتبر التناص مع القرآن الكريم وسيلة لتحفيز الذاكرة النّصية للمتلقي في إدراك المعاني، والدلالات الجديدة التي أضفاها هذا التفاعل مع القرآن الكريم في النّص الشعري المتناص مع آيات القرآن الكريم، حيث يعمل على إعادة قراءة النّصوص القرآنية بوعي عميق، والبحث عن أوجه التماثل، والتضاد، وآليات التوظيف إلى ما يشكل مجمل الوظيفة النّصية [20].

وقد يكون الهدف من التناص مع القرآن الكريم هدفاً دينياً، يقصده الشاعر من أجل تأكيد بعض الأحكام القرآنية، " وذلك من خلال إعادة صياغتها، بما يتناسب، والسياق الشعري، ويطعمها بمعان إضافية، تخدمُ دَلالاتَها الأصلية، وتعملُ على إدامة، واستمرارية فعاليتها الرمزية، والدلالية، والعقدية زَمَنياً، وفق ما يتلاءم، ومستجدات المرحلة التي جرى توظيفها فيها"[21].

ولنا في الشعر، والشعراء خير دليلٍ على ذلك؛ " فالشاعر مهما كانتْ موهبته أو نبوغه الشعري، فإنّه يحملُ نفحات من نصوص غيره، ومِن هذه النفحات ما هو واضح جلي، ومنها ما يتطلب براعة الناقد وحصافته للكشف عنها"[22].

التحليل التركيبي للتناصات الدينية:

لقد استقصى الباحث الأدوات، والآليات التي تمكنه من الكشف عن شواهد التناص عامةً، والتناص الديني خاصةً في الدراسات اللسانية، ويرى أنْ تكون تراكيب التناص موزعةً على محورين:

- التناص الإفرادي.
- التناص السياقي.

ويشرع الآن في عرض كلا النمطين كالتالي:

1- السياق الإفرادي:

تراكيب المفردات الدينية

وردتْ في رسالة الجاحظ موضوع الدراسة عدة مفردات متناصة مع نصوص دينية، في القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف، وبالجملة مع الألفاظ الإسلامية، ومن بينها قول الجاحظ في إحدى استشهاداته: " **فطرة الرجل معجونة بحب الوطن**"[23].

التحليل التركيبي:

1- الحذف: deletion

تم الاقتباس للفظة من الآية الكريمة " **فطرة الله التي فطر الناس عليها** "، بالاستغناء عن مقاميتها، وذلك لأنّ المقصود بالفطرة في الآية هو الدين الإسلامي، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: " فوصف الإسلام بأنّه فطرة الله معناه أنّ أصل الاعتقاد فيه جار على مقتضى الفطرة العقلية، وأمّا تشريعاته، وتفاريعه فهي: إمّا أمور فطرية أيضاً، أي جارية على وفق ما يدركه العقل، ويشهد به، وإمّا أنْ تكون لصلاحه ممّا لا ينافي فطرته " [24].

2- الإحلال: Replacement

تم إحلال دَلالة حبّ الوطن للفطرة في نص الجاحظ.

وهنا نرى كيف اجتمع النّصان في الدلالة على التمسك الشديد، والتعبير بلفظ الفطرة المنصبة على حبّ الوطن عندما يستحضر فطرة الإسلام، فما هذا إلا تأكيد على ضرورة حبّ الوطن، ودَلالة واضحة من زاوية أخرى على أنّ حبّ الوطن من تعاليم الإسلام السمحة التي لا ينبغي أنْ تُهجر أو تترك لأي داعٍ من الدواعي.

ومن تراكيب التناص الديني الإفرادي أيضاً قول الجاحظ: " **وترى الأعراب تحن إلى البلد الجدب، والمحل القفر، والحجر الصلد** "[25]، عند تحليله تَبَعَاً للمستوى النحوي التركيبي نجد المتتالية التالية:

1- الحذف: deletion

تم الاكتفاء بلفظة صلدا من الآية الكريمة " **فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا** "، والتي فسر دَلالتها صاحب تفسير المنار بقوله: " ثم شبه - تعالى - أصحاب المن، والأذى بالمرائي أو إبطال عملهم للصدقة بإبطال ريائه لها فقال: كالذي ينفق ماله رئاء الناس أي لأجل ريائهم أو مُرائياً لهم ؛ أي لأجل أنْ يروه فيحمدوه لا ابتغاء مرضاة الله - تعالى - بتحري ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين، وترقية شأن الملة بالقيام بمصالح الأمة، فهو إنّما يحاول إرضاء الناس، و لا يؤمن بالله، واليوم الآخر فيتقرب إليه - تعالى - بالإنفاق خشية عقابه، ورجاء ثوابه في ذلك اليوم فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا أي إنّ صفته

وحاله في عدم انتفاعه بما ينفق كالحجر الأملس إذا كان عليه شيء من التراب ثم أصابه مطر غزير عظيم القطر أزال عنه ما أصابه حتى عاد أملس ليس عليه شيء من ذلك التراب.

ووجه الشبه بين المان، والمؤذي بصدقته، وبين المرائي بنفقته أنّ كلا منهما غش نفسه فألبسها ثوب زور يوهم رائيهما لا حقيقة له كمن يلبس لبوس العلماء أو الجند، وليس منهم، فلا يلبث أنْ يظهر أمره، ويفتضح سره، فيكون ما تلبس به كالتراب على الصفوان يذهب به الوابل، كذلك تكشف الحوادث، وما يبتلى به المؤمنون، والمنافقون حقيقة هؤلاء، وتفضح سرائرهم، فهم لا يقدرون على شيء مما كسبوا أي لا ينتفعون بشيء من صدقاتهم، ونفقاتهم، ولا يجنون ثمراتها في الدنيا، ولا في الآخرة، أما في الدنيا فلأنّ المن، والأذى مما ينافي غاية الصدقة - كما تقدم - ومن فعلهما كان أبغض إلى الناس من البخيل الممسك، والرياء لا يخفى على الناس" [(26)].

2- الإحلال: Replacement

تم إحلال الصلد في متن الجاحظ بالدلالة على آثار الوطن، وما تستوجبه من شدة الحنين إلى الوطن، واستحضار الآية يثير المعنى، ويقويه.

ومن تراكيب التناص الديني الإفرادي لفظة (**تنس نصيبك**) التي وردتْ في قول الجاحظ: " **وقالتْ أعرابية: إذا كنتَ في غير أهلك فلا تنس نصيبك من الذل** "[(27)].

يقوم الباحث بفك التركيب السابق كالتالي:

1- الحذف: deletion

لعلّها قد استحضرتْ لفظة (تنس نصيبك) قوله تعالى: " **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إنّ الله لا يحب المفسدين** "، والتي تعني لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب، لأنّ حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة. وقال السدي: بالصدقة وصلة الرحم. وقال علي: لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة[(28)].

2- الإحلال: Replacement

تم إحلال الذل في غير الوطن بدل العمل والجد الدنيوي استعدادا للآخرة. ولا شك أن التناص الديني هنا أحدث نوعا من التشويق الأسلوبي؛ فنص الجاحظ باستحضار النّص القرآني ولد نوعا من الفرحة في البداية؛ لأنّ (لا تنس) توحي بضرورة الاهتمام بالشيء، لكن يصاب القارئ بالخيبة عند نهاية الجمل؛ وكأن الذل صار جائزة ثمينة.

تراكيب السياقات الدينية

منه قول الجاحظ: " **شيء من العلم، ونوع من الحكمة**"[(29)]. هنا ظهر التناص بين جملتين متتاليتين، الأولى . شيء من العلم، والأخرى نوع من الحكمة.

يمكن تحليل النّص السابق كما يأتي:

1- الزيادة: Addition

تم الإبقاء على النّص السابق، وهو هنا التركيب الأول " شيء من العلم "، دون حذف؛ فصار في نظر الدارس من الشواهد الدالة على الإبقاء على النّصين في التركيب العربي.

1- الإحلال: Replacement

تم الاعتماد الأسلوبي على الجملة المكررة " نوع من الحكمة"؛ بوازع التكرار بالمعنى، الذي يؤكد المعنى، ويوضحه.

ويشبه هذا التركيب قول الجاحظ: " **يدعو إلى تأليف ما كان فيه مُشَتتاً، ومعنى يحد وعلى جميع ما كان منه مُتفرِقاً** "[30].

فهنا تم الجمع بين النّصين المتآكدين، واللذين ينطبعان بالطابع الإسلامي في الدلالات الواضحة.

ومن أصدق الشواهد في حبّ الوطن أنّ يوسف عليه السلام لما أدركته الوفاة أوصى أنْ تحمل رمته إلى موضع مقابر أبيه وجده يعقوب، وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام[31].

ومن هذا القبيل أيضاً تناصات دينية تعود بنا إلى الديانات السابقة؛ ومن شواهده ما ذكره الجاحظ بقوله: " **وممن تمسك من بني إسرائيل عليه السلام بحب الأوطان خاصة، ولد هارون، وآل داود؛ لم يمت منهم ميت في إقليم بابل في أي بلد من البلدان مات، إلا نبشوا قبره بعد حول، وحملت رمته إلى موضع يدعى الحصاصة بالشام فيودع هناك حولا، فإذا حال الحول نقلت إلى بيت المقدس** "[32].

1- الحذف: deletion

حيث تم استبدال النّص الأصلي عند بني إسرائيل، المختص بحب الوطن بالدليل على هذا الحبّ، وهو نبش القبور، وكان نبش القبور كان مسموحاً به في الديانات السابقة قبل الإسلام.

1- الإحلال: Replacement

تم إحلال نبشوا القبور بدلاً من حبّ الوطن.

ومن مسائل التناصات السياقية الرمز؛ وهو وجه مهم للتناص الديني وغير الديني؛ يقول: " وللرمز صلة بما تعالجه نظرية التناص، إذ نضعه ضمن ما ينتج في التناص، ولاسيّما غير المباشر، وهو من جماليات التناص؛ إذ يتحقق عن طريق مؤشرات علامة نبض قد يسكت عن بعض أحداثه ودَلالاته، وتدخل مؤثرات ذاتية مختلفة في تحقيق أثره، فالكاتب يظهر الحدث، ويرمز إليه، وهكذا يتمظهر النّص الغائب داخل النّص الحاضر من خلال الرمز "[33].

ونذكر هنا قول الجاحظ: " **تربة الصبا تغرس في القلب حرمة، وحلاوة، كما تغرس الولادة في القلب رقة وحفاوة** "[34]؛ حيث نعيش مع تركيب المفعول به هنا، وهو حرمة، ونتساءل عن الإخبارية النّصية فيها، ولعلّها تستحضر دَلالة نص ديني قديم من التراث الإسلامي، تظهر فيه حرمة الوطن، والاستماتة في الحفاظ عليه، وعدم التفريط فيه؛ وبالفعل ورد ذلك كالتالي:

1- الحذف: deletion

أطلق السيوطي عنواناً أسماه حرمة مكة ذكر فيه تلك الرواية: " **أخبرنا محمد بن قدامة عن جرير عن منصور عن مجاهد عن طاووس عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . يوم الفتح هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه قال العباس يا رسول الله إلا الإذخر فذكر كلمة معناها إلا الإذخر** "[35].

2- الإحلال: Replacement

كما ترى فقد حل تركيب المفعولية محل النّص التراثي المذكور، وقد أغدق علينا من دلالات النّص القديم ما جعلنا نتقبل التركيب المحدث.

ومن جميل المتناصات السياقية تلك الرواية: **" وقيل لأعرابي: ما أصبركم على البدو ؟ قال: كيف لا يصبر من وطاؤه الأرض، وغطاؤه السماء، وطعامه الشمس، وشرابه الريح ! والله لقد خرجنا في إثر قوم قد تقدمونا بمراحل ونحن حفاة.."**[36].

1- الحذف: deletion

لا شك أنّ تركيب الحال الجملة (ونحن حفاة) مستوحى من الحديث الثاني في كتاب جامع العلوم، والحكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الإسلام: أنْ تشهد أنّ لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إنْ استطعتَ إليه سبيلا ". قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان قال: " أنْ تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره ". قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: " أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك ". قال: فأخبرني عن الساعة ؟. قال: " ما المسئول عنها بأعلم من السائل ". قال: فأخبرني عن أمارتها ؟. قال: " أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ." ص: [94 ثم انطلق، فلبثت مليا، ثم قال لي: " يا عمر، أتدري من السائل ؟. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ."[37].

2- الإحلال: Replacement

وهنا تم إحلال تركيب (ونحن عراة) محل تركيب المفعولية (أن ترى الحفاة العراة)؛ ليمتلئ النّص الجديد عند الجاحظ دلالات قوية: التركيب الأول في سياق الآخرة، ووصف نهاياتها؛ ويهدف إلى أخذ العظة، والاعتبار من هول يوم القيامة، أما سياق الجاحظ فيهدف إلى كون الوطن دواء للمرضى، حتى وهم في حالة مزرية، النعال غير موجودة، واللباس غير موفور.

وفي إطار عرض شواهد التناص الديني عند الجاحظ لا يفوتنا أنْ نستشهد بشواهد عن الاستعارة البلاغية، ودورها في خدمة النّص اللغوي، وفحوى إعلامية النّص، ولا سيّما أنّ البداية الأولى لعلم اللغة النّصي كانت في الاستعارات. نذكر هنا قول الجاحظ: **" وإنّ السبب الذي بعث على جمع نتف من أخبار العرب في حنينها إلى أوطانها، وشوقها إلى تربها وبلدانها، ووصفها في أشعارها، وتوقد النار في أكبادها، أنّي فاوضتُ بعض من انتقل من الملوك في ذكر الديار....."**[38].

الحذف: deletion

وهي تستحضر حديثاً مَرْوِياً عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وهذا نصه: " وفي الحديث: "ذبح لرسول الله شاة ثم صنعتْ في الإرة " الإرة حفرة توقد فيها النار. وقيل هي الحفرة التي حولها الأثافي. يقال وأرت إرة. وقيل الإرة النار نفسها. وأصل الإرة إري بوزن علم، والهاء عوض من الياء [39] وهذا النّص التراثي على طبيعة الدلالة اللغوية؛ لأنّ الكلام على أصله المعجمي.

الإحلال: Replacement

تم إحلال النّص الجديد (توقد النار في أكبادها)؛ حيث شبه الأكباد بالحفرة التي جاءتْ في حديث رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ثم حذف المشبه به، وهو النّص الأول؛ على سبيل الاستعارة المكنية، التي عملت هنا على إيضاح المعنى بين طرفين حسيين.

وتأتي السياقات الدينية بصورة قليلة نسبيا في الرسالة، ونذكر هنا قوله تعالى: " **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم** " [(40)]. واللافت للنظر هنا أن الجاحظ يفسر دلالة الآية بطريقة تناصية فيقول: " **فسوى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم** ". وواضح هنا النّصين: أحدهما القتل، والأخر التمسك بالوطن، والجامع بينهما علاقة الخطورة، والأهمية الشديدة؛ فكما أنّ القتل محرم عَمْدَاً، منهي عنه، من أكبر الكبائر؛ فإنّ الجاحظ يجعل الموت في هذه الدرجة.

الخاتمة:

- اتضح مما سبق كيف كانتْ دراسة رسائل الجاحظ مفيدة في تقصي شواهد التناص الديني بشكليه: الإفرادي، والاستعمالي السياق.
- اتضح أيضاً أهمية السياق الديني في جذب الانتباه، والتشويق للمتن، وتقوية المعنى، وتأكيده.
- ظهر مدى أسبقية العرب في الدراسات النّصية، ولا سيّما مجال التناص الديني.
- تبين كون المعايير النّصية كَوْنَاً لا يتجزأ؛ فالفصل التعسفي لا يرتضيه البحث.
- تأكد الباحث من كون معيار الإعلامية أقرب معايير النّصية إلى التناص، وإنْ رآها الباحث هي العمود الفقري له.
- اتضح تنوع الشواهد في رسائل الجاحظ المنصبة على التناص الديني.

وفي نهاية العمل، يدعو الباحث بالاهتمام بتراثنا العربي، وتاريخه، ومنجزاته، حتى يفيدنا ذلك في إظهار الكثير من الفرائد، والفوائد، كما يدعو الله القدير أنْ يجعل البحث مَقْبُولاً في طاعته تعالى.

الهوامش:

1- (السلمي) مسلم مساعد: التناص القرآني في شعر أبي إسحاق الألبيري، ص10، مجلة جذور، النادي الأدبي بجدة، ح47، أغسطس 2017م.
2- إرشاد الأريب، ج6، ص56.
3- (الجاحظ) عمرو بن بحر: رسائل الجاحظ، ص ص6/5، دار الحداثة، بيروت، 1988م.
4- د. (الفقي) صبحي: علم اللغة النّصي، ج1، ص36، دار قباء، القاهرة، 2000م.
5- د. (رمضان) نادية: علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق الخطابة العربية نموذجا، مجلة علوم اللغة، م9، ص293، دار غريب، القاهرة، 2006م.
6- د. (أبي حسين) محمد ود. زيد الشمري: الإعلامية في علم اللغة النّصي دراسة تطبيقية في النّص الأدبي الحديث، ص10، نور نشر، ألمانيا، 2018م.
7- (دي بوجراند) روبرت: النّص والخطاب والإجراء، ترجمة: د. تمام حسان، ص ص105/103، عالم الكتب، القاهرة، 1998م.
8- د. (ياقوت) أحمد سليمان: دراسات نحوية في خصائص ابن جني، ص ص34/33، د. ط، الرياض، 1980م.
9- (السكاكي) أبي يعقوب يوسف: مفتاح العلوم، ص44، الحلبي، القاهرة، 1990م.

10- د. (أبي حسين) محمد محمود: مستوى التراكيب النحوية في ضوء علم اللغة الحديث، من ص13، دار النابغة، طنطا، 2016م، وانظر أيضا: (تشومسكي) نعوم: معرفة اللغة، ترجمة: محي الدين حميدي، ص249، الزهراء، السعودية، 2002، وانظر أيضا: د. (البهنساوي) حسام: نظرية النحو الكلي والتراكيب اللغوية العربية دراسة تطبيقية، ص6، الثقافة الدينية، 2004م.

11- د. (المغربي) حافظ: أشكال التناص وتحولات الخطاب الشعري المعاصر دراسات في تأويل النّصوص، ص ص180/181، الانتشار العربي – النادي الأدبي بحائل، السعودية، 2010م.

12- ابن منظور: لسان العرب، مادة نصص، ص241، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

13- (الفيرزآبادي) أبو يعقوب: القاموس المحيط، مادة نصص، ص631، الرسالة، بيروت، 1999م.

14- (عبد الكريم) ابتسام موسى: التناص الديني والتاريخي في شعر محمود درويش، من ص2، ماجستير، جامعة الخليل، فلسطين، 2007م.

15- د. (السعيد) سعاد فهد: بخلاء الجاحظ دراسة تطبيقي في علم لغة النّص، ص433، الانتشار العربي - النادي الأدبي بأبها، السعودية، 2014م.

16- (الكساسبة) مالك زامل: مظاهر التناص الديني والأدبي في شعر ابن خفاجة الأندلسي، ، م44، ص204، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس، القاهرة، 2016م.

17- المرجع السابق: ص204.

18- د. (الزغبي) أحمد: التناص نظريا وتطبيقيا، من ص29، مؤسسة عمون، عمان، الأردن، 2000م.

19- المرجع السابق: ص37، وانظر أيضا: د. (أبو بكر) أسماء: آليات التناص النوعي في شعر الحداثة، ص ص47/46، دار الزمان، المدينة المنورة، السعودية، 2005م.

20- (العبيدي) جاسم محمد أحمد: التناص الأدبي والديني في شعلر وليد الصراف، ص77، ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، عمان، 2016م، وانظر أيضا: (عباسي) محمد زبير: التناص مفهومه وخطر تطبيقه على القرآن الكريم، ص هـ، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، باكستان، 2014م، والآيتان: سورة آل عمران/62، وسورة: يوسف/3.

21- المرجع السابق: ص77.

22- (بهار) حسن علي بشير، التناص الديني عند أبي العتاهية، ص15، ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، 2014/2013م.

23- الجاحظ: الرسائل، ج2، ص244.

24- (عاشور) محمد الطاهر: التحرير والتنوير، ج22، ص92، د.ط، د.ت، والأية من سورة الروم/30.

25- الجاحظ: الرسائل، ج2، ص245.

26- (رضا) محمد رشيد: تفسير المنار، ج3، ص ص57/56، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م، والآية من سورة البقرة/264.

27- الجاحظ: الرسائل، ج2، ص247.

28- (البغوي) الحسين بن مسعود: تفسير البغوي، ج6، ص77، دار طيبة، السعودية، د.ت، والآية من سورة القصص/77.

29- الجاحظ: الرسائل، ج2، ص242.

30- المرجع السابق: ص242.

31- المرجع السابق: ص259.

32- المرجع السابق: ص259.

33- (علي) زينب ميثم: فاعلية التناص في التشكيل النّصي للأدب، من ص138، عدنان، بغداد، 2014م.

34- الجاحظ: الرسائل، ج2، ص244.

35- (السيوطي) جلال الدين: شرح السيوطي لسنن النسائي، ص2474، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1986م.

36- الجاحظ: الرسائل، ج2، ص248.

37- (الحنبلي) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص93، الرسالة، دمشق، 2001م.

38- الجاحظ: الرسائل، ج2، ص242.

39- (ابن الأثير) مجد الدين: النهاية في غريب الحديث والأثر، ص19، العلمية، بيروت، د.ت.

40- الجاحظ: الرسائل، ج2، ص254، والآية من سورة البقرة/40.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- (ابن الأثير) مجد الدين: النهاية في غريب الحديث والأثر، العلمية، بيروت، د.ت.
- (البغوي) الحسين بن مسعود: تفسير البغوي، دار طيبة، السعودية، د.ت.
- د. (أبو بكر) أسماء: آليات التناص النوعي في شعر الحداثة، دار الزمان، المدينة المنورة، السعودية، 2005م.
- (بهار) حسن علي بشير، التناص الديني عند أبي العتاهية، ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، 2014/2013م.
- د. (البهنساوي) حسام: نظرية النحو الكلي والتراكيب اللغوية العربية دراسة تطبيقية، الثقافة الدينية، 2004م.
- (تشومسكي) نعوم: معرفة اللغة، ترجمة: محي الدين حميدي، الزهراء، السعودية، 2002م.
- (الجاحظ) عمرو بن بحر: رسائل الجاحظ، دار الحداثة، بيروت، 1988م.
- د. (أبي حسين) محمد ود. زيد الشمري: الإعلامية في علم اللغة النّصي دراسة تطبيقية في النّص الأدبي الحديث، نور نشر، ألمانيا، 2018م مستوى التراكيب النحوية في ضوء علم اللغة الحديث، دار النابغة، طنطا، 2016م.
- (الحنبلي) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، الرسالة، دمشق، 2001م.
- (دي بوجراند) روبرت: النّص والخطاب والإجراء، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1998م.
- (رضا) محمد رشيد: تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م.
- د. (رمضان) نادية: علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق الخطابة العربية نموذجا، مجلة علوم اللغة، دار غريب، القاهرة، 2006م.
- (الزركلي) خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.
- د. (الزغبي) أحمد: التناص نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمون، عمان، الأردن، 2000م.
- د. (السعيد) سعاد فهد: بخلاء الجاحظ دراسة تطبيقي في علم لغة النّص، الانتشار العربي - النادي الأدبي بأبها، السعودية، 2014م.
- (السكاكي) أبي يعقوب يوسف: مفتاح العلوم، الحلبي، القاهرة، 1990م.
- (السلمي) مسلم مساعد: التناص القرآني في شعر أبي إسحاق الألبيري، مجلة جذور، النادي الأدبي بجدة، ح47، أغسطس 2017م.

- (السيوطي) جلال الدين: شرح السيوطي لسنن النسائي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1986م.
- (عاشور) محمد الطاهر: التحرير والتنوير، بدون طبعة. بدون تاريخ.
- (عباسي) محمد زبير: التناص مفهومه وخطر تطبيقه على القرآن الكريم، ص هـ، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، باكستان، 2014م.
- (العبيدي) جاسم محمد أحمد: التناص الأدبي والديني في شعر وليد الصراف، ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، عمان، 2016م.
- (علي) زينب ميثم: فاعلية التناص في التشكيل النّصي للأدب، عدنان، بغداد، 2014م.
- د. (الفقي) صبحي: علم اللغة النّصي، دار قباء، القاهرة، 2000م.
- (الفيرزآبادي) أبو يعقوب: القاموس المحيط، الرسالة، بيروت، 1999م.
- (عبد الكريم) ابتسام موسى: التناص الديني والتاريخي في شعر محمود درويش، ماجستير، جامعة الخليل، فلسطين، 2007م.
- (الكساسبة) مالك زامل: مظاهر التناص الديني والأدبي في شعر ابن خفاجة الأندلسي، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس، القاهرة، 2016م.
- د. (المغربي) حافظ: أشكال التناص وتحولات الخطاب الشعري المعاصر دراسات في تأويل النّصوص، الانتشار العربي – النادي الأدبي بحائل، السعودية، 2010م.
- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- د. (ياقوت) أحمد سليمان: دراسات نحوية في خصائص ابن جني، د. ط، الرياض، 1980م.

The grammar structure of religious intertextuality structures used by Al-Jahez in modern linguistics, especially the Message of Nostalgia

Abstract: This study aims at revealing the mechanisms of religious intertextuality used by Al-Jahez in his book "The Messages", especially the Message of Nostalgia. The student discusses definitions that are linguistically similar. That is: structural level, textual linguistics, textual criteria, and intertextuality in general and religious intertextuality in particular. In addition, it aims at presenting the most prominent roles of textual linguistics, intertextuality, religious intertextuality, together with finding the linguistic evidences for the structures of the religious intertextuality in the message of Al-Jahez" Nostalgia" with full explanation and analysis to this message depending on the methodology of structural level which includes the sciences of both syntax and morphology.

Keywords: Textual Linguistics, Grammar Structure, Religious Intertextuality, Intertextuality Structure.